رضا الحكيم الشعيري

اقتصاد الأمم



من ازدهار الإمبراطوريات إلى مغرب المستقبل

Produced by
RH©

اقتصاد الأمم

من ازدهار الإمبراطوريات إلى مغرب المستقبل

تأليف

رضا الحكيم الشعيري

الإهداء

إلى والدي، اللذين غرسا في قيمة العمل والصبر، وعلماني أن بناء الإنسان يسبق بناء الثروة.

إلى أبنائي، الذين يمنحون لكل جهد معنى، ولكل خطوة نحو المستقبل سببا أعمق للاستمرار.

إلى كل عامل ومقاول وفلاح وحرفي وموظف وشاب يبدأ طريقه بإمكانات محدودة، لكنه يرفض الاستسلام للصعوبات.

وإلى المغرب الذي نحب؛ بتاريخه وما حققه، وبما ينتظره من عمل وإصلاح وأمل.

أهدي هذا الكتاب إلى كل من يؤمن بأن قوة الأمم لا تمنح لها، بل تبنيها بسواعد أبنائها، وعدالة مؤسساتها، ومعرفة عقولها، وإصرارها على أن تصنع مستقبلا أفضل.

الفهرس

- **المقدمة** 1
- **الفصل الأول: ما الاقتصاد القوي؟** 4
  - حين تكبر الأرقام ولا تتغير الحياة 4
  - العمل: أكثر من رقم البطالة 7
  - الإنتاجية: قيمة الساعة لا طول اليوم 8
  - الاقتصاد الذي يصمد عندما تهتز الأسواق 9
  - الاستقلال الاقتصادي لا يعني إغلاق الأبواب 10
  - المال العام: الاقتراض للبناء لا لتأجيل المشكلات 11
  - استقرار الأسعار: حين يحافظ المال على معناه 12
  - الثقة: رأس مال لا يظهر في الحسابات 13
  - الاقتصاد القوي: منظومة تعمل معا 14
- **الفصل الثاني: المحركات الستة للازدهار** 15
  - لماذا لا يكفى محرك واحد؟ 15
  - المحرك الأول: دولة قادرة وعادلة 17
  - المحرك الثاني: مؤسسات تحمي الحقوق والمنافسة 20
  - المحرك الثالث: اقتصاد ينتج قيمة حقيقية 24
  - المحرك الرابع: تعليم ومعرفة وابتكار 28
  - المحرك الخامس: تجارة منفتحة تخدم الإنتاج الوطني 33
  - المحرك السادس: قدرة المجتمع على التكيف مع التحولات 38
- **الفصل الثالث: الاقتصاد قبل الدولة الحديثة** 43
  - من فائض الحبوب إلى طرق التجارة العالمية 43
  - المحور الأول: بلاد الرافدين — حين ولد الحساب لخدمة الاقتصاد 46
  - المحور الثاني: مصر القديمة — اقتصاد يتحرك مع النيل 49

— المحور الثالث: الفينيقيون وقرطاج — حين تحولت الموانئ إلى شبكة نفوذ 52
— المحور الرابع: الهند والصين — اقتصادان صنعا الشرق 55
— المحور الخامس: اليونان وروما — من اقتصاد المدينة إلى اقتصاد الإمبراطورية 59
— المحور السادس: لماذا تضعف الاقتصادات والحضارات؟ 63
— خلاصة الفصل الثالث: الأسس القديمة للقوة الاقتصادية 66

■ **الفصل الرابع: كيف بنت الحضارة الإسلامية اقتصادا عالميا؟** 68

— المدخل: من أسواق الجزيرة العربية إلى اقتصاد يمتد بين القارات 68
— المحور الأول: المبادئ التي نظمت النشاط الاقتصادي 71
— المحور الثاني: بيت المال وموارد الدولة 75
— المحور الثالث: النقود والعقود وأدوات تمويل التجارة 79
— المحور الرابع: الأسواق والمدن والزراعة والصناعة 84
— المحور الخامس: الوقف والعلم والبنية الاجتماعية 88
— المحور السادس: شبكة التجارة التي ربطت العالم 92
— المحور السابع: حدود التجربة وأسباب التراجع 96
— خلاصة الفصل: كيف بني اقتصاد عالمي ولماذا لم يدم تفوقه؟ 99

■ **الفصل الخامس: اقتصاد الغرب الإسلامي والإمبراطوريات المغربية** 101

— مدخل الفصل: المغرب بين الصحراء والبحر 102
— المحور الأول: الجذور الاقتصادية للمغرب قبل الإمبراطوريات الكبرى 104
— المحور الثاني: المرابطون — من طريق القوافل إلى بناء إمبراطورية 108
— المحور الثالث: الموحدون — السوق الواسعة والدولة المركزية 112
— المحور الرابع: المرينيون والوطاسيون — ازدهار فاس وتراجع الوحدة 116
— المحور الخامس: السعديون — السكر والذهب وتمويل القوة 120
— المحور السادس: الدولة العلوية — توحيد البلاد وبناء اقتصاد الموانئ 124
— المحور السابع: عندما تغير ميزان القوة مع أوروبا 129
— المحور الثامن: ما الذي صنع القوة وما الذي أدى إلى التراجع؟ 133
— خلاصة الفصل: من إمبراطوريات المغرب إلى سؤال المستقبل 137

■ **الفصل السادس: لماذا سبقت الثورة الصناعية بعض الدول؟** 139

— مدخل الفصل: العالم قبل الثورة الصناعية 140
— المحور الأول: التراكم الطويل قبل ظهور المصانع 142

- المحور الثاني: هولندا — عندما أصبحت التجارة صناعة قائمة بذاتها 148
- المحور الثالث: لماذا بدأت الثورة الصناعية في بريطانيا؟ 154
- المحور الرابع: المصنع يغير معنى الإنتاج والعمل 162
- المحور الخامس: الولايات المتحدة — من الورشة إلى الإنتاج الواسع 169
- المحور السادس: ألمانيا — حين تحالفت الصناعة مع العلم والتعليم التقني 178
- المحور السابع: اليابان — نقل المعرفة من دون فقدان الهوية 187
- المحور الثامن: لماذا لحقت دول وتأخرت أخرى؟ 197
- خلاصة الفصل: الآلة لم تصنع الثورة وحدها 206

الفصل السابع: المعجزات الاقتصادية الحديثة وحدودها 208

- مدخل الفصل: من الهامش إلى قلب الاقتصاد العالمي 209
- المحور الأول: ما المعجزة الاقتصادية؟ 212
- المحور الثاني: كوريا الجنوبية — من الفقر إلى الصناعة والتكنولوجيا 216
- المحور الثالث: سنغافورة — دولة صغيرة تبني موقعا اقتصاديا كبيرا 225
- المحور الرابع: الصين — من الاقتصاد المغلق إلى مصنع العالم 236
- المحور الخامس: تجارب مكملة — تايوان وفيتنام 249
- المحور السادس: المحركات المشتركة خلف المعجزات الاقتصادية 261
- المحور السابع: الوجه الآخر للمعجزة — التكاليف والحدود 274
- المحور الثامن: ما الذي يمكن نقله وما الذي لا يمكن نسخه؟ 287
- خلاصة الفصل السابع 302

الفصل الثامن: كيف تشكل الاقتصاد المغربي؟ 304

- مدخل الفصل: اقتصاد يحمل طبقات تاريخه 305
- المحور الأول: المغرب عشية الحماية — اقتصاد تحت ضغط أوروبا 308
- المحور الثاني: اقتصاد الحماية — التحديث في خدمة السيطرة 321
- المحور الثالث: الاستقلال واسترجاع القرار الاقتصادي 335
- المحور الرابع: السدود والفوسفاط والمؤسسات العمومية — الدولة التي تبني أدواتها 347
- المحور الخامس: المغربة وظهور رأس المال الوطني — من يملك الاقتصاد؟ 355
- المحور السادس: أزمة المديونية والتقويم الهيكلي — حين اصطدم الطموح بحدود التمويل 364
- المحور السابع: الإصلاح والانفتاح في أواخر عهد الحسن الثاني — اقتصاد يستعد لمرحلة جديدة 374
- المحور الثامن: بداية عهد الملك محمد السادس — الإنسان والأرض في قلب التنمية 384

- المحور التاسع: من الأوراش الكبرى إلى الاقتصاد المنتج — الصناعة والطاقة وإفريقيا والحماية الاجتماعية 395
- خلاصة الفصل الثامن: من اقتصاد العبور إلى اقتصاد بناء القوة 410

الفصل التاسع: الاقتصاد المغربي اليوم — عناصر القوة والاختلالات 414

- مدخل الفصل: اقتصاد يتقدم بسرعتين 415
- المحور الأول: الصورة العامة للاقتصاد المغربي 418
- المحور الثاني: عناصر القوة التي يملكها المغرب 423
- المحور الثالث: الصناعة والتصدير — نجاح واضح وقيمة محلية غير مكتملة 428
- المحور الرابع: الفلاحة والماء والأمن الغذائي 434
- المحور الخامس: الخدمات والسياحة والتجارة واللوجستيك 440
- المحور السادس: التعليم والمهارات وسوق الشغل 447
- المحور السابع: المقاولة الصغيرة والتمويل ومناخ الأعمال 453
- المحور الثامن: الاقتصاد غير المهيكل والتفاوتات الاجتماعية والمجالية 460
- خلاصة الفصل التاسع: قوة حقيقية تحتاج إلى جذور أعمق 467

الفصل العاشر: الطريق إلى مغرب اقتصادي قوي 470

- المدخل: من التشخيص إلى مشروع للمستقبل 471
- المحور الأول: ما الاقتصاد الذي نريده للمغرب؟ 476
- المحور الثاني: دولة تقود الاتجاه ولا تعوض المقاولة 483
- المحور الثالث: صناعة مغربية تصنع قيمتها وتقنيتها 491
- المحور الرابع: تعليم يصنع الإنسان المنتج 501
- المحور الخامس: المقاولة المغربية في قلب التحول 511
- المحور السادس: الأمن المائي والغذائي والطاقي 523
- المحور السابع: الاقتصاد الرقمي والذكاء الاصطناعي 534
- المحور الثامن: جهات قوية وخريطة تنفيذ إلى سنة 2040 547
- خلاصة الفصل العاشر: الطريق الذي نصنعه 563

الخاتمة العامة: حين تصنع الأمم اقتصادها 568

من سجلماسة إلى مغرب المستقبل

عند حافة الصحراء، حيث كانت الرمال تخفي الطرق نهارا وتكشفها النجوم ليلا، قامت مدينة سجلماسة كأنها بوابة معلقة بين عالمين. لم تكن مجرد واحة تستريح فيها القوافل المتعبة، بل كانت قلبا اقتصاديا تنبض فيه حركة التجار والمسافرين، حتى لقبت بـ«عاصمة الذهب»؛ فمنها كانت تعبر قوافل الذهب القادمة من بلاد السودان الغربي، محملة أيضا بالملح والمنسوجات والسلع التي كانت تنتقل بين إفريقيا والمغرب والأندلس وضفاف البحر المتوسط. كانت الجمال سفن ذلك الزمان، وكانت الأسواق رسائل مفتوحة تصل بين حضارات لا تفصل بينها المسافات بقدر ما تجمعها الحاجة إلى التبادل والربح والمعرفة. وبعد قرون طويلة، وعلى الطرف الشمالي من المغرب، ارتفعت رافعات ميناء طنجة المتوسط بأذرعها الحديدية فوق البحر، وحلت الحاويات العملاقة محل صناديق القوافل، وأصبحت السفن تقطع في أيام ما كان التجار يقطعونه في شهور. بين سجلماسة وطنجة المتوسط تغيرت الطرق والوسائل، وتبدلت العملات والسلع، وانتقل العالم من وقع حوافر القوافل إلى هدير المحركات ودقة الأنظمة الرقمية، لكن السؤال الاقتصادي العميق ظل يعبر الزمن من دون أن يفقد معناه: هل يكفي أن تقع أمة في قلب الطرق التجارية، وأن تمتلك الموانئ والثروات والموقع، حتى تصبح أمة قوية ومزدهرة؟ إن التاريخ، الذي لا ينخدع ببريق الذهب ولا بضخامة السفن، يجيبنا بأن عبور الثروة من أرض ما لا يعني بالضرورة أن تستقر فيها. فالأمم لا تقاس بما يمر عبر حدودها، ولا بما تخفيه تربتها من موارد، وإنما بما تصنعه بأيدي أبنائها، وما تضيفه بعقولهم من قيمة، وما تبنيه من مؤسسات تحول الفرص العابرة إلى قوة منتجة، والثروة المؤقتة إلى ازدهار يستطيع الصمود أمام تقلبات الزمن.

من هذا السؤال تبدأ رحلة هذا الكتاب؛ رحلة لا تبحث عن وصفة سحرية تختصر نهضة الأمم في قرار واحد، ولا تزعم أن طريق الازدهار كان متشابها في كل زمان ومكان. فلكل اقتصاد قصته، ولكل قوة لحظة صعود وأسباب تراجع، غير أن التاريخ يكشف، خلف اختلاف الأزمنة والحضارات، خيوطا مشتركة صنعت النجاح حين اجتمعت، ومهدت للفشل حين انقطعت. سنعود إلى الاقتصادات القديمة التي نظمت الزراعة والضرائب والتجارة، وندخل أسواق الإمبراطوريات الإسلامية التي امتدت شبكاتها من الأندلس والمغرب إلى المشرق وآسيا، ثم نتابع انتقال مركز القوة إلى أوروبا مع الثورة الصناعية، ونقرأ تجارب الدول التي نهضت حديثا

في آسيا وغيرها. لن تكون هذه العودة إلى الماضي تمجيدا لحضارات مضت، ولا استسلاما لنماذج جاهزة ولدت خارج واقعنا، بل محاولة لفهم القوانين العميقة التي تجعل أمة تحول مواردها إلى قوة، بينما تبدد أمة أخرى فرصها مهما امتلكت من ثروات. وفي نهاية الرحلة سنعود إلى المغرب، لا باعتباره حالة معزولة عن التاريخ، بل بلدا يقف اليوم عند مفترق حاسم: بين الاكتفاء بموقعه وما يعبره من تجارة واستثمارات، وبين بناء اقتصاد منتج يستطيع أن يصنع المعرفة والقيمة، ويوفر العمل الكريم، ويمنح أجياله مكانا أقوى في عالم لا ينتظر المترددين.

لا أكتب هذا الكتاب من موقع من يملك جميع الأجوبة، ولا أقدمه باعتباره بحثا أكاديميا موجها إلى المتخصصين وحدهم. أكتبه بصفتي مواطنا مغربيا يحاول أن يفهم كيف تصبح بعض الدول غنية وقوية، بينما تبقى دول أخرى عالقة رغم ما تملكه من موارد وفرص. وأكتبه أيضا من واقع تجربة تقترب من عشرين سنة في العمل الاقتصادي والمقاولة؛ تجربة عايشت خلالها عن قرب صعوبة إنشاء المشاريع وتطويرها، وتوفير فرص العمل، والتعامل مع الإدارة والتمويل والضرائب وتقلبات السوق. هذه التجربة لا تجعلني أدعي امتلاك الحقيقة، لكنها منحتني فرصة لرؤية الاقتصاد كما يعيشه الناس والمقاولون، لا كما يظهر في الأرقام والتقارير وحدها. لذلك لن أحاول إغراق القارئ في النظريات والمصطلحات، بل سأبحث معه عن إجابات واضحة لأسئلة نطرحها جميعا: من أين تأتي ثروة الأمم؟ لماذا تنجح دولة في بناء الصناعة والتعليم، بينما تظل دولة أخرى معتمدة على الاستيراد؟ ولماذا تصل فوائد النمو إلى فئات واسعة في بعض البلدان، بينما تبقى محصورة في أيدي قليلة في بلدان أخرى؟ قد لا نجد جوابا بسيطا عن كل سؤال، لكننا نستطيع، من خلال التاريخ وتجارب الشعوب، أن نفهم الأخطاء التي تتكرر، والاختيارات التي تصنع الفرق، والدروس التي يمكن أن تساعد المغرب على بناء اقتصاد أقوى وأكثر عدلا.

الفكرة التي ينطلق منها هذا الكتاب بسيطة: الاقتصاد القوي لا يبنى على عنصر واحد. فالموقع الجغرافي مهم، والثروات الطبيعية مفيدة، والاستثمارات ضرورية، لكنها لا تكفي وحدها لصناعة الازدهار. قد تمتلك دولة النفط أو الذهب، ويبقى جزء كبير من شعبها فقيرا، وقد تحقق أرقام نمو مرتفعة من دون أن يشعر المواطن بتحسن حقيقي في حياته. الاقتصاد القوي يحتاج إلى دولة قادرة على تنفيذ قراراتها وتطبيق القانون بعدل، وإلى مؤسسات تحمي الحقوق وتفتح المجال أمام المنافسة، وإلى مقاولات تنتج وتبتكر وتوفر فرص العمل. كما يحتاج إلى تعليم يمنح الإنسان المعرفة والمهارة، وإلى تجارة تربط البلاد بالعالم من دون أن

تحولها إلى مجرد سوق للسلع الأجنبية، وإلى توزيع عادل للفرص يسمح لمن يعمل ويجتهد بأن يتقدم. هذه العناصر لا تعمل منفصلة، بل يقوي بعضها بعضا؛ فالتعليم الجيد يدعم الإنتاج، والإدارة الفعالة تشجع الاستثمار، والمنافسة تمنع الاحتكار، والإنتاج القوي يجعل التجارة مصدرا للثروة لا بابا دائما للاستيراد. ومن خلال هذه الروابط سنحاول فهم كيف بنت الأمم قوتها، وكيف فقدتها، وما الذي يستطيع المغرب أن يتعلمه من تجاربها.

لهذا سيتحرك الكتاب بين الماضي والحاضر، لا ليروي تاريخ الاقتصاد سنة بعد أخرى، بل ليتوقف عند التجارب التي تحمل درسا يمكن فهمه والاستفادة منه. في كل تجربة سنطرح أسئلة واضحة: كيف بدأت القوة الاقتصادية؟ ما الذي كانت الدولة تنتجه وتتاجر فيه؟ كيف نظمت الضرائب والأسواق والعمل؟ من استفاد من الثروة؟ وما الأسباب التي حافظت على النجاح أو أدت إلى تراجعه؟ سنستعين بالأرقام والمراجع حين تكون ضرورية، لكننا سنحاول تقديمها بطريقة تساعد القارئ على الفهم، لا بطريقة تجعله يضيع وسط الجداول والمصطلحات. وعندما نصل إلى المغرب، لن نكتفي بتعداد المشكلات، لأن تشخيص الضعف من دون اقتراح طريق للإصلاح لا يغير شيئا. سنبحث في نقاط القوة التي يملكها البلد، والعوائق التي تمنعه من الاستفادة منها كاملة، ثم نقترح اختيارات واقعية يمكن تنفيذها على مراحل. فالهدف من هذا الكتاب ليس أن يقدم وعودا سهلة، بل أن يفتح نقاشا جادا حول السؤال الذي يهم مستقبلنا جميعا: كيف يستطيع المغرب أن ينتقل من اقتصاد يستفيد من موقعه وموارده، إلى اقتصاد يصنع قوته بعمل أبنائه ومعرفتهم وقدرتهم على الإنتاج؟

الفصل الأول

ما الاقتصاد القوي؟

حين تكبر الأرقام ولا تتغير الحياة

مدخل الفصل

حين تكبر الأرقام ولا تتغير الحياة

قد يستيقظ المواطن على خبر يعلن أن اقتصاد بلده نما، وأن الناتج الداخلي ارتفع، وأن الاستثمارات سجلت أرقاما جديدة. لكنه حين يخرج إلى الشارع يجد الأسعار أعلى، والعمل ما زال صعبا، والراتب لم يعد يكفي. هنا يظهر الفرق بين نمو الاقتصاد وازدهار الإنسان. فارتفاع الناتج يعني أن البلاد أنتجت هذا العام سلعا وخدمات أكثر من العام الماضي، لكنه لا يخبرنا وحده من استفاد، ولا إن تحسنت فرص العمل والخدمات. وقد تكون الدولة غنية بمواردها بينما يعيش جزء من مواطنيها في الهشاشة. لذلك لا يقاس اقتصاد برقم واحد مهما بدا كبيرا، بل بأسئلة أعمق: هل ينتج ما يحتاجه؟ هل يوفر عملا مستقرا وأجورا تواجه الأسعار؟ هل يمول تعليما وصحة وبنية تخدم الناس والمقاولات؟ الاقتصاد القوي ليس أرقاما تكبر على الورق، بل نتائج تتحول إلى حياة أفضل وقدرة أكبر على مواجهة الأزمات.

> **الاقتصاد القوي ليس أرقاما تكبر على الورق، بل نتائج تتحول إلى حياة أفضل وقدرة أكبر على مواجهة الأزمات.**

يمكن تقريب الفرق بمثال: أسرة لها دخل ثابت وبيت وبعض المدخرات، لكن أفرادها قد لا يعيشون حياة جيدة إن أرهقهم المرض أو الديون أو ضعف التعليم؛ فما تملكه لا يكفي وحده للحكم على جودة حياتها. وكذلك الدول: النمو يعني أن قيمة ما أنتج ارتفعت عن فترة سابقة، أما الثراء فهو ما تراكم من بنية ومؤسسات ومعرفة وقدرة على الإنتاج، وأما ازدهار المواطن فيظهر في دخله وصحته وتعليمه وسكنه وأمنه وفرصه. وقد يرتفع إنتاج بلد بفضل قطاع واحد دون أن يمتد أثره إلى بقية القطاعات أو أغلب السكان. لذلك لا نسأل: كم نما الاقتصاد؟ فحسب، بل: من صنع النمو؟ ومن استفاد منه؟ وهل أضاف قدرة تدوم؟ حين تجتمع زيادة الإنتاج مع تراكم الثروة وتحسن حياة الناس، يكون التقدم